- الفصل الرابع -

(كل شيء في العالم مبني على قاعدة الأخذ والعطاء أو التبادل وهذا هو التوازن السلبي والايجابي)

تفارق صاحبانا وسار كل طريقه فسار الشيخ الى احدى القرى المجاورة للأهرام يستضيف الاجاويد وسار نجيب الى بيته مفكراً متأملا بما سمع واجتاز جسر قصر النيل ولم تكن تلك الضوضاء وحركة السيارات والعربات وجلبة الناس لتلهيه عما كان يتأمل فيه وتنبهه من سباته العميق لولا أنه أحس بيد امسكته بكتفه وهزته وسمع صوتا يناديه باسمه فالتفت الى ورائه فرأى أحد اصحابه يبتسم له محييا فرد التحية بأحسن منها فقال له صاحبه مالي أراك يانجيب دائما مفكراً لقد اضنيت جسمك العلك تريدان تغير نظام الكون ؟ دع عنك هذه الافكار وكن كبقية الاخوان فرحاً جزلا طروبا ، اني مدعو الليلة الى حفلة عند احد المعارف فتعال معي فسيغنينا احد كبار المغنين المشهورين على تخت مشهور أيضاً ، فهي ليلة أنس وطرب وسمع فهيا بنا وسوف تدعو لي بالخير وما

زال به حتى قبل وسار معه وكان هذا الصديق كاتباً أديباً حلو الحديث لطيف المعشر واسمه فريد فأخذ الاثنان يتحادثان في أمور شتى وقد نسي نجيب ما كان يفكر فيه فأخذ يضحك مع فريد مما كان هذا يلقيه على مسامعه من مستملح النكت وكان فريد في حالة سرور عظيم يطفح البشر على وجهه ويقهقه طويلا لكل نكتة يلقيها وقال لنجيب والله أنني يا صاح لم أذكر أني يوماً من الايام قد ضحكت مثل اليوم فربنا يعطينا خير هذا الضحك

وما كان في الوقت متسع أخذ الاثنان يتمشيان على هذه الحالة على ضفاف النيل وكانت المراكب من شراعية وبخارية متلألئة الانوار تخترق الماء ذهابا وإيابا وحواليها عدد كبير من الزوارق مكتظة بالناس طالبي النزهة تروح وتجيء عن عليها وكانت سطوح الذهبيات الراسية على شاطئ النهر غاصة أيضاً بسكانها وبزوارهم وكانت أنوار جميع هذه المراكب وأنوار الجسر والمنازل والفنادق القريبة مع أنوار تلك السماء الصافية تنعكس على مياه النهر العظيم الهادئة فتزيد المنظر بهجة تأخذ بمجامع القلوب فأثر هذا المنظر في صاحبينا جدا

فقال فريد لنجيب هلم يا أخي نجاري القوم في عملهم و نتنقل من الارض الى الماء فنأخذ نحن أيضاً ساعة زمن زورقا فلذّة العيش في التنقل فحقاً أن هذه الليلة لهي من الليالي النادرة فوافق نجيب على هذه الفكرة بكل ارتياح وناديا بأحد الزوارق فجاءهما وركبا وجعلا يقذفان والرئيس محمد ماسك الدفة بيديه الاثنتين وكانا يتسابقان مع بقية الزوارق ضاحكين فرحين وفيما هما كذلك اذ سمع فريد ضحكا خيل له أنه يعرف الضاحك فامتقع لونه قليلا كأنه شعر بحلول العاصفة فقال لنجيب رويدك يا اخي اسمع أليست هذه ضحكة فريدة :

« وكانت فريدة هذه فتاة في مقتبل العمر بارعة الجمال أديبة متعلمة هام فريد في حبها من بضع سنوات حباً عذريا كاد يذهب بلبه لولا طبيعته الميالة الى اللهو والطرب وما كان يختلقه لنفسه من الاسباب ليموه عن فكره التفكير بمن كان يهوى »

هيا بنا نقترب من الزورق حيث الصوت لنتحقق من الامر فانصت نجيب قليلا فعلم أن الضحك هو ضحك فريدة ولعلمه بما سيكون لهذا المشهد من التأثير على فريد خصوصاً اذا كانت فريدة مع شخص آخر كما يدل الواقع بدا له أن يغالطه

ويحوله عن عزمه على اللحاق بها والاقتراب منها فقال له أظن أنك اخطأت التقدير لاني لا أرى أقل مشابهة بين الصوتين ثم ما الذي يأتي بفريدة الآن الى هنا في هذه الساعة ، واذا فرضنا المستحيل وكانت هي فانها انما تكون مع عائلتها أو أحد اخوتها واقترابنا منها ليس من اللياقة والادب بشيء فدع عنك الآن فريدة واترك التفكير بها ولنعد الى ماكنا فيه فما قلته من قبل لي بخصوص التفكير بالكون والطبيعة أقوله لك الآن بخصوص فريدة كما قال الشاعر

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

فلم يستمع فريد لهذا القول بل أخذ يقذف بسرعة طلباً للحاق بهذا الزورق وسايره نجيب في عمله لانه رأى أن الحالة مع صاحبه لاتجدي فيها المعاكسة نفعا وبعد بضع دقائق كانا قد اقتربا جداً من الزورق فسارا بمحاذاته قليلا ولم يكد فريد يلقي نظره على من فيه حتى اصفر لونه وتثلج جسمه وارتخت مفاصله فسقط المقذاف من يده وارتمى على نجيب كأنه صعق من هول ما راى واخذ يتنهد وينتحب كالأطفال فحول نجيب سير زورقهما بأقل من لمح البصر

لئلا ينتبه احد اليهما واعطى المقاذيف الى الرئيس محمد وامره بالرجوع الى الشاطىء واخذ هو يعالج حالة صاحبه محاولا تعزيته على قدر الامكان وهكذا تحولت الحال من فرح عظيم الى كدر وحزن اليم فقد انقلب المعزى معزيا والمعزي معزاً ولما بلغا الشاطيء نقد نجيب صاحب الزورق اجرته واخذ بفريد الى منزله ولم يتركه طول تلك الليلة وفي الصباح لم يشأ نجيب ايضا ان يدع فريدا وحده فدعاه لمرافقته واخذ يقص عليه ماحضره من الاخبار والعبر محاولا تخفيف آلامه وتحويل افكاره عن صدمة الامس وكان من جملة الأخبار الحديث عن الشيخ فسري عن فريد بعض الشيء وطلب الى نجيب أن يذهبا سويا لمقابلته حسب المتفق

وعندما ازف الوقت جاء الاثنان الى الجزيرة فوجدا الشيخ قد سبقهما فسلما عليه واستأذنه نجيب بتقديم صديقه اليه فقبل ولكن على ما بدا عليه كان قبوله عن غير ارتياح كلي ثم نظر اليهما مليا مستفحصا مستقرئا وقال موجها الكلام الي نجيب . مالي اراك يا صاح وصاحبك وقد بدت على محيا كما آثار السهر والانهماك والحزن فهل حدث أمر

مكروه لاسمح الله حتى اثر عليكما هكذا فان حالتكما على
ما تبين لي ليست بالعادية المألوفة فاخبره نجيب بكل ما حصل
من حين ما فارقه بالامس الى ساعة ملاقاته الآن قاصا عليه
جميع ذلك حرفا حرفا فتعجب الشيخ ولكن عجبه لم يكن
لوقوع الامر بل لمصادفته الموضوع الذي سيكون حديث
اليوم فقال لقد سألتني بالامس عن رأيي فيما لو كان يمكن
للانسان بعد رقيه الحالي ان يجد لنفسه طريقة بها يتوصل
الى أن يكيف حاله على شكل اعدل من حالته الراهنة تفيده
ولا تضر بغيره من موجودات الطبيعة لتكون حياته اهدأ
واهنأ منها الآن وقد شاءت الاقدار والصدف أن تساعدني
على افهامك ذلك لتكون على اقتناع تام من نظريتي ففي
حادثتكما بالامس الدليل القاطع والبرهان الساطع فاعلما أن
كل شيء في العالم حيث انه جزء من الينبوع العظيم وقد
تحول كل الى مظاهر و قوى مختلفة تحت ناموس التوازن
انبنى على قاعدة التبادل اوالاخذ والعطاء لهذافانه ليستحيل
على الانسان اذا كان يريد المحافظة على درجته فى الرقي
وتدرجه فيها وعلى كيانه الحالي ان يتملص من هذه القاعدة

ولكنه يمكنه أن يلطف منهما بعض الشيء لذا فكل شيء يفعله المرء أو يشعر به له مقابل أو ثمن أو ضد فلا فرح بلا حزن وله سعادة بلا شقاء ولا تعب بلا راحة ولا لذة بلا مرارة ليبقى ناموس التوازن السلبي والايجابي دائما متسلطا نافذ لو اختل ولو ذرة واحدة لانعدم كل شيء

لقد تركتني وأنت منقبض الصدر فلم تلبث حتى لقيت فريداً فشرح صدرك فسررت مهنيهة ولما كان فرح فريد شديداً كذلك كان حزنه شديداً وكما كان لك معزيا هكذا كنت له أنت أيضا فقد قيل إن الجزاء من صنف العمل واعلم أن سرور تلك المرأة سيعقبه مرارة وكدر يوازيان شقاء فريد وما يقال عن فريدة يقال عن صاحبها فيوم لك ويوم عليك . يأكل الانسان الحيوان والنبات وهما في دورهما يتغذيان به ثم أن التراب الذي منه تغذوا يتغذى هو أيضاً منهم ويسمد بهم

يتلذذ الانسان بالمأكولات الشهية من لحوم وخلافها ولكن تلك اللذة تكلفه ثمنا غاليا يدفعه من تعبه ومن صحته ومن حياته . يتلذذ بالملاهي والشهوات ولكنه يضني جسمه

ويقصر عمره . تلبس الملابس لتقيك البرد والحر فتتنعم بها ولكنك في الحقيقة تدفع ثمن هذا النعيم من جني تعبك ومن اضناء جسمك لانك بستوك له تقلل نمو قوته ومناعته. تأكل الحلو فتتلذذ به وتأكل المر فتتمرر فلولا مرارة المر لما عرفت طعم الحلو ولولا التعب لما عرفت لذة الراحة ولقد قال الشاعر

ضدان لما استجمعا حسنا والضد يظهر حسنه الضد

لقد قلت لي أن الانسان ترقى كثيراً وأنا أجاريك وأقول رقي ولكن في الحقيقة ليس هذا سوى تحول أو تغيير مظاهر دون أقل افادة حقيقية أعني دون أن يزيد له شيء عن شيء تأنق في مأكله وملبسه وسكنه فعلى قدر ملذته هذه دفع ثمنا من قصر حياته ومضايقته لحريته ومن أمراضه وتعبه وشقائه . ترقى في نفسه وفي تصوره فعلى قدر الزيادة زاد في ضعف جسمه وفي آلامه الروحانية

يضربك زيد فيوجعك فتتألم في جسمك وفي نفسك لأن مايتألم منه الجسم تشعر به النفس وما تتألم منه النفس يؤثر على الجسم وبعد ذلك يسكن الألم فتشعر بلذة ثم يجازى

زيد فترتاح نفسك وقد تكون مجازاة زيد أن رأسا أو بواسطة لانه على كل يجب أن يدفع ثمن عمله أما بعذابه الجسمي مضاعفا أو بعذابه الروحي مضاعفا اذا لم يشترك الجسم والروح في الثمن لسبب ما لأنه اذا تألم الجسم فقط يجب أن يكون على قدر التألم الجسمي والروحي وإذا تألمت الروح فقط يجب أيضاً أن تكون آلامها كآلام المعتدى عليه جسما وروحاً

يتفنن الانسان بتحضير المأكولات اللذيذة فيتلذذ بها فتقوى به حاسة اللذة ويصير على قدر اللذة من اللذيذ يشعر بالكره من الكريه . لقد أصبح الانسان الآن يطير في الهواء وينتقل بسرعة من مكان الى مكان فعلى قدر فرحه بالسرعة صار يتأفف من البطء ولربما ما يعده الآن بطئاً كان يعده من قبل سرعه يفرح بها والامثلة على هذا هي في كل شيء لذا نرى أن النسبة مهما تغيرت المظاهر هي دائماً بين التبادل محفوظة ونراها أيضاً واضحة فيما سن له من اللوائح والشرائع وما استنبطه من القواعد قصد ذلك أو لم يقصد عرف هذه الحقيقة أو لم يعرف لانه لا يمكنه أن يخرج عن

الطبيعه فهو منها لابل هو مجتمع المالك الثلاث وهيأة للعالمين المادي والروحي

لقد قال الكتاب أحبب قريبك كنفسك وافعل بغيرك ما تريد أن يفعله غيرك بك لأن الأنانية الانسانية تلزم الانسان أن لا يرضى لنفسه الا كل خير وراحة فمن أحب قريبه كنفسه أراد له طبعاً مايريده لنفسه وعامله كما يعامل نفسه ولما كان التبادل بين الناس عظيما بالنسبة لجمعيتهم الانسانية ولحالتهم المعيشية ولاشتباك مصالحهم بعضهم مع بعض كتبت هذه الحكمة استناداً على هذه القاعدة تخفيفاً لآلامهم بعضهم من بعض وتقوية لجمعيتهم ضد الكائنات الأخرى لأنهم بما يدّخرون من القوى الايجابية فى ذواتهم بعدم أضاعتها فى تكالبهم مع بعض يقاومون سلبية تلك الكائنات الاخرى. هذا ماقيل فيما مضى وكان دينا وهو لايختلف كثيراً معنى عما يقال اليوم قانونا . أن حرية المرء يجب أن تنتهي حيث يبتديء واجبه نحو الغير فمن هنا يتضح أيضاً انه لم يخرج عن هذه القاعدة لافي دينه ولا معاملته الاجتماعية الاتراه في صلاته لخالقه يعطي ليأخذ . يقرب القرابين لينال

الجزاء ينذر النذور ليحصل على ما يرجو يسبح ويمجد لينال المغفرة وهلم جرا مما هو ظاهر جلي في كل أعماله وأحواله وأفكاره أن روحياً أو جسديا فعلى هذا التوازن السلبي والايجابي انبنت سنة التبادل والاخذ والعطاء وهي أيضاً الاس الذي منه ظهر العدل وما العدل سوى التوازن فعلى قدر الأخذ يجب العطاء وعلى قدر الاذية يجب التعويض وعلى قدر التعب تجب الراحة واعلم ان ما قيل بهذا المبحث عن الأنسان يقال ايضاً عن الحيوان وينطبق على كل شيء آخر بمظاهر واشكال وطرق شتى لان قانون التوازن يسري على كل مافي الاكوان والعوالم

فقال نجيب ولكن اذا صحّ هذا ولا اراه الا صحيحا فبماذا تعلل اسباب الانحلال والانقلاب والتغير اذا كانت دائما نواميس التوازن محفوظة والتبادل بالقسط العادل حقيقياً فتبسم الشيخ وقال بورك فيك يا نجيب ان سؤالك هذا لم يفاجئني على غرّة بل كنت متوقعا اياه منك وسأجيبك عليه في الغد ان كان في العمر بقيه .

وكان الاثنان نجيب وفريد ينصتان بكل أنتباه الى

كل كلمة كان الشيخ يلقيها غير ان فريد وكان لم يعتد على ترويض فكره على مثل هذه المباحث قد استفزّه الفرح وأخذ يقبل نجيبا شاكراً له استصحابه معه وتقديمه الى الشيخ ثم قام الى الشيخ يصافحه مظهراً له أغتباطه بما سمع منه راجيا أن يسمح له بالعودة اليه ثانيا فأجابه الشيخ اذا كانت هذه المسائل مما ترتاح اليها وتعرف من نفسك القدرة على فهمها فعلى الرحب والسعة والآن فالى الملتقى بالغد

— الفصل الخامس —

(العوامل المساعدة على التكوين هي نفسها)
(المساعدة على التحويل في ظروف أخرى)

ذهب الشيخ فى حال سبيله كالمعتاد وقفل صاحبانا نجيب وفريد راجعين الى المدينة يتحادثان بما سمعاه ويضربان الامثال ويقيمان الشواهد ويطبقانها على الواقع وقد انفتح أمامهما باب واسع من هذا المبحث ولاغرو فحياة كل واحد منهما فى جميع مظاهرها ودقائقها وما عاياه وعانياه هي مصداق لقول الشيخ